مسؤولية مبكرة

الكاتبة/ منى حسام

جيل الخلافة

مكتبة الأطفال لجيل الخلافة
سلسلة أجنحة غزة الصامدة
ketaeb.com

فِي غَـرْبِ النُّصَـيْرَاتِ، وَسَـطَ الدَّمَـارِ وَالْغُبَـارِ، تَعِيـشُ الطِّفْلَـةُ جَنَـى، ابْنَـةُ الأَرْبَعَـةِ عَـشَرَ عَامًـا، حَيَـاةً لَا تُشْـبِهُ حَيَـاةَ الأَطْفَـالِ الآخَرِيـنَ.

مُنْـذُ الصَّبَـاحِ الْبَاكِـرِ، تَفْتَـحُ عَيْنَيْهَـا عَـلَى صَـوْتِ الْقَصْـفِ الْبَعِيـدِ، لَا عَـلَى زَقْزَقَـةِ الْعَصَافِـيرِ وَالْهُـدُوءِ.

تَنْهَـضُ قَبْـلَ وَالِدَتِهَـا، تَحْمِـلُ كِيسًـا مُهْتَرِئًـا خَـرَجَ مِـنْ عُمْـرِهِ الطَّوِيـلِ، ثُـمَّ تَسِـيرُ نَحْـوَ الـرُّكَامِ.

لَيْسَتْ ذَاهِبَةً إِلَى الْمَدْرَسَةِ، وَلَا إِلَى اللَّعِبِ مَعَ صَدِيقَاتِهَا، بَلْ إِلَى جَمْعِ الْحَطَبِ مِنْ تَحْتِ الأَنْقَاضِ.

تَدْخُلُ الْبُيُوتَ الْمُهَدَّمَةَ، تُفَتِّشُ بَيْنَ الْجُدْرَانِ الْمَكْسُورَةِ، تَلْتَقِطُ مَا يُمْكِنُ أَنْ يَشْتَعِلَ فِي فُرْنِ الطِّينِ، تَعْرِفُ أَنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ هُنَاكَ مُغَامَرَةٌ مَعَ الْمَوْتِ، فَالْقَصْفُ لَا يَخْتَارُ وَقْتًا وَلَا مَكَانًا، وَمَعَ ذٰلِكَ تَمْضِي.

تَقُولُ فِي نَفْسِهَا وَهِيَ تَضَعُ قِطَعَ الْحَطَبِ عَلَى كَتِفَيْهَا الصَّغِيرَتَيْنِ: «لَازِمْ أَرْجَعْ قَبْلَ مَا تَغِيبِ الشَّمْسْ، مَامَا بِدُّهَا تِخْبِزْ».

فِي الْخَيْمَـةِ الْمُهْتَرِئَـةِ تَنْتَظِرُهَـا أُمُّهَـا الْمُتْعَبَـةُ، وَجْهُهَا مُغَطًّـى بِطَبَقَـةٍ مِـنَ الرَّمَـادِ وَالدُّخَـانِ، وَيَدَاهَـا مُتَشَـقِّقَتَانِ مِـنْ لَهِيـبِ النَّـارِ.

تَجْلِـسُ جَنَـى قُرْبَهَـا، تُشْـعِلُ النَّـارَ تَحْـتَ فُـرْنِ الطِّـينِ، تَقُـولُ الأُمُّ بِحَنَـانٍ مُبَلَّـلٍ بِالتَّعَـبِ: «يَـا جَنَى، يَـا رُوحِـي يَـا مَامَـا، لَـوْ خَلَّصَـتْ الْحَـرْب، كُنْـتِ رَجَعْتِـي عَالْمَدْرَسَـة».

فَتَبْتَسِمُ جَنَى ابْتِسَامَةً خَجُولَةً، وَتُجِيبُ وَهِيَ تَنْفُخُ عَلَى الْجَمْرِ: «إِنْ شَاءَ اللهُ يَا أُمِّي! أَوَّلُ مَا تِهْدَى الدُّنْيَا، بَدِّي أَرْجَعْ أَتْعَلَّمْ، وَأَصِيرْ مُهَنْدِسَة، وَأَبْنِي بُيُوتْ بَدَلْ اللِّي رَاحَتْ».

أَمَّا وَالِدُهَا، فَيَجْلِسُ فِي زَاوِيَةِ الْخَيْمَةِ مُصَابًا، عَاجِزًا عَنِ الْعَمَلِ بَعْدَ أَنْ فَقَدَ جُزْءًا مِنْ سَاقِهِ.

يَنْظُرُ إِلَى ابْنَتِهِ الصَّغِيرَةِ بِحُزْنٍ وَفَخْرٍ مَعًا، وَيَقُولُ بِصَوْتٍ مَبْحُوحٍ: «اللهُ يَحْمِيكِ يَا بِنْتِي.. حَامِلَة هَمًّا وَمَسْؤُولِيَّةً كَبِيرَةً يَا بَابَا».

تَمْسَحُ جَنَى الْعَرَقَ عَنْ جَبِينِهَا، وَتُوَاصِلُ إِشْعَالَ النَّارِ، يَكْسُو وَجْهَهَا وَهَجُ اللَّهَبِ، كَأَنَّهَا تُضِيءُ ظَلَامَ الْحَرْبِ بِصَبْرِهَا.

مِنَ الصَّبَاحِ حَتَّى الْمَغِيبِ، لَا تَعْرِفُ الرَّاحَةَ، وَلَا تَعْرِفُ اللَّعِبَ، فَقَطْ تَسْعَى لِتُبْقِي أُسْرَتَهَا حَيَّةً.

وَفِي الْمَسَاءِ، عِنْدَمَا تَخْبُو النَّارُ، تَرْفَعُ رَأْسَهَا نَحْوَ السَّمَاءِ الْمُلَبَّدَةِ بِالدُّخَانِ، وَتَهْمِسُ:

«يَا رَبِّ، خَلِّصِ الْحَرْبَ، بَدِّي أَرْجَعْ أَكْتُبْ وَاجِبِي، وَأَضْحَكْ مِثْلْ زَمَانْ».

فِي ذٰلِكَ الرُّكْنِ الصَّغِيرِ مِنَ النُّصَيْرَاتِ، كَانَتْ جَنَى تُشْعِلُ نَارًا لَا تُطْفِئُ الْجُوعَ فَقَطْ، بَلْ تُبْقِي الأَمَلَ حَيًّا بَيْنَ الرُّكَامِ.

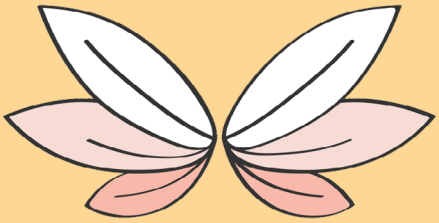

أجنحة غزة الصامدة